كتب وسيكتب الكثير عن سقوط الخلافة العباسية وعن احتلال المغول لبغداد لما لهذا الحدث من اثار خطيرة على التاريخ الاسلامي – العربي من جهة وعلى التاريخ العالمي من جهة اخرى . وبالرغم من اهمية هذا الحدث الا أنه لم يدرس دراسة مفصلة وافية الى الان على كثرة ما هو متوفر لدينا من معلومات اولية عنه .

ان ضعف وسقوط الدولة العباسية لم يكن وليد وقته او نتيجة لغزو التتر فقط . ولكن الضعف في اوصال هذه الخلافة كان بعيد الجذور تاريخياً وقد بذل بعض الخلفاء جهودا محموده من اجل تقوية كيان الخلافة العباسية من امثال الناصر لدين الله «٥٧٥ – ٦٢٢ هـ» وحفيده المستنصر «٦٢٢ – ٦٤٠ هـ» الا ان جهودهما كانت محدوده الاثر كما انها جائت متاخرة فلم تستطيع ان تبعث الحياة الى الاوصال المحطمة لهذه الدولة فقد كانت المنازعات الداخلية بين الطوائف الدينية تنهش فيها داخليا كما ان سيطرتها الخارجية على بقية العالم الاسلامي الممزق – كانت اسمية فقط . فقد كان هم الامراء المسلمين هو الحصول على التقليد من الخليفة مقابل ان يذكر اسم الخليفة في الخطبة وفي السكة دلالة على تبعيتهم له ظاهرياً فقط وحصولهم على التقليد كان من اجل اثبات شرعية حكمهم في اعين رعاياهم .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

وكانت الاضطرابات الداخلية المستمرة في بغداد قد انهكت قوى الدولة واقلقت بالها ووجهت انظار الخلفاء الى الداخل اكثر من توجيه اهتمامهم الى الخارج مما جعل انهيارها امرا لا مفر منه .

والمقال التالي سوف لن يعالج اسباب سقوط الخلافة حيث ان المؤلف قد عالج هذا الموضوع بتفصيل في دراسة مستقلة «ستطبع قريبا» بل سيركز على العمليات الحربية التي قام بها المغول من اجل احتلال بغداد . ودراسة للاستراتيجية العسكرية المغولية وفنون التعبئة عندهم .

مما لاشك فيه فان توسع المغول زمن جنكيزخان في شرق اسيا كان سريعا جدا فقد اكتسحوا الصين ثم اتجهوا غربا نحو تركستان وما وراء النهر مكتسحين الدولة الخوارزمشاهية بسهولة ويسر فاصبحت ايران مفتوحة امامهم ولم يعد فيها من حاكم قوى ولا دولة موحدة تستطيع الصمود امام هذا التيار الهائل فسيطروا على معظم اجزاء ايران مع اجزاء مهمة من جنوب روسيا . وعندما اصبح «منكوقان» حفيد جنكيزخان خانا على جميع المغول وجه اخاه هولاكو لاكمال ماقام به المغول سابقاً من اكتساح العالم الاسلامي فقام هولاكو بالسيطرة على ما تبقى من ايران واستطاع حيث فشل غيره تحطيم قلاع الاسماعيلية واحتل عاصمتهم الموت عام « ٦٥٤ / ١٢٥٦ » وتمكن من القضاء على دولتهم وقتل امامهم ركن الدين خورشاه . وقد تم هذا الانتصار بمساعدة نصير الدين الطوسي وزير ركن الدين خورشاه واصبح نصير الدين بعد ذلك

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

اليد اليمنى لهولاكو ووزيراً له «١» . وبعد ان استتب الامر لهولاكو في ايران وجه همه نحو العراق واراد احتلاله باي ثمن كان فاخذ باعداد العدة وتهيئة سبل القتال والتقدم . ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي تعرض فيها العراق للغزو المغولي فقد سبقت هذه الحملة حملات استطلاعية متعدده كانت اولاها عام ٦١٨ . في زمن الناصر لدين الله وتجددت الغارات في زمن المستنصر والمعتصم الا انها كانت غارات استطلاعية من جهة ومن اجل النهب والسلب والحصول على الغنائم من جهة اخرى اكثر مما كانت تستهدف الفتح المنظم الهادف .

الا ان حملة هولاكو كانت على العكس من ذلك كانت تهدف الى الفتح والسيطرة لهذا لم تتصف بالسرعة او بالهجوم الخاطف بل قام هولاكو باعداد حملة كبيرة منظمة ومستعدة للقتال استعداداً هائلا .

فلما توافرت الاخبار بوصول هولاكو الى اذربيجان قاصداً العراق ترددت رسل الخليفة الى الشام طالبا من الامراء الايوبيين مساعدته على صد المهاجم حتى ان المستعصم طلب من الملك الناصر داود ان يصالح الملك المعز وان يتفقا على حرب المغول

---

(١) عن احتلال المغول لقلاع الاسماعيلية انظر ابن العبري - مختصر تاريخ الدول . تحقيق الاب صالحاني ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ ، وابن الفوطي - الحوادث الجامعة تحقيق مصطفى جواد بغداد ١٩٣٢ ص ٣١٢- ٣١٤

يلاحظ المستشرق Brown ملاحظة طريفة عن نصير الدين الطوسي فيقول « ومن الغريب في الامر ان هذا الخائن كان مؤلف كتاب من اوسع الكتب انتشاراً في علم الاخلاق » .

E. G. Brown , A Literary History of Persia , vol. 2 , P. 457.

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

فوافق الملك الناصر على ذلك «١» ويذكر اليونيني ان الخليفة عندما علم بقدوم التتر اضطر الى «الانتصار بكل احد» «٢» وقد لقيت استنجادات الخليفة بامراء الشام صدى لاباس به فقد توجه الملك الناصر داود في جماعة من اولادة الى العراق الا ان الخليفة اشار عن طريق رسوله الباذرائي اليه بالا قامة على حدود العراق «في قرقيسيا» الى ان ياذن له الخليفة بالدخول الى العراق ولكن الخليفة لم ياذن لهذا الامير بالدخول مما جعل الامير يمل من الانتظار ويعود الى الشام ومنها الى سيناء «٣» فهل كان الخليفة ياترى حذرا من دخول اي قوة مهما كانت غايتها خوفا على سلطانه من جهة واشعار للغير بقوته التي لا تحتاج الى اية مساعدة من جهة اخرى ؟ من هذا نلاحظ ان الخليفة المستعصم بالله لم يال جهدا - عندما سمع بتقدم هولاكو نحو العراق - في سبيل استنهاض همم امراء الاسلام لتوحيد شملهم للوقوف امام الغزو المغولي . كما اهتم بتجنيد الجند للدفاع عن بغداد . يقول رشيد الدين :

---

(١) - الذهبي - تاريخ الاسلام ج ٢٠ - ورقة ٢٠٩ / أ مخطوطة ابا صوفيا ٣٠١٣ انظر السبكي - طبقات الشافعية ، ح ٥ ص ١١٣ .

(٢) - اليونيني - ذيل مرأة الزمان - ح ١ ص ١٧٣ حيدر اباد ١٩٥٤

(٣) - الذهبي تاريخ الاسلام ح ٢٠ ورقة ٢١٠/ ب انظر كذلك الفرائد الجلية في الفرائد الناصرية - مجموعة رسائل الناصر داود - ورقة - ٥ مخطوطة ابا صوفيا ٨٢٣؛ واليونيني ذيل ح ١ ص ٥٣

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

انه قد عقد اجتماع في دار الوزير حضره امراء بغداد وعظماؤها مثل سليمان شاه بن برجم وفتح الدين بن كره ومجاهد الدين الدواتدار الصغير . واخذوا بشرح الوضع ذاكرين سوء سياسة الخليفة وانه صديق المطربين والمساخرة وعدو الجيش وقد ابدى سليمان شاه رايا بوجوب الاستنجاد وتهيئة القوة للحرب وان عليهم المقاومة . وقد سمع الخليفة بما ادلى به سليمان شاه فامر بتجنيد الجند واوكل امرهم الى سليمان شاه «١»

اما رأي الوزير ابن العلقمي فقدكان على العكس من رأي القادة العسكريين كان يرى ان خير وسيلة لايقاف هولاكو عن تقدمه هي استرضاؤه سلميا بالهدايا واظهار الخضوع له وقد ترددت الرسل بين هولاكو وبغداد . يقول نصير الدين الطوسي في رسالته عن فتح بغداد ان هولاكو عندما تقدم لحرب الاسماعيلية طلب من الخليفة ارسال نجدة لمحاربة الملاحدة الا ان الدواتدار الصغير رفض هذا الطلب موضحا للخليفة ان قصد هولاكو هو اخلاء بغداد من الجند حتى يسهل عليه فتحها والاستيلاء عليها لهذا لم يرسل الخليفه احداً الى هولاكو .

---

(١) :- رشيد الدين جامع التواريخ ح ٢ قسم ١ - ص ٢٧٣ - ٢٧٤ . الترجمة العربية سليمان شاه احد زعماء عشائر الايفارية التركمانية . كما كان قائداً بارزاً من قواد الخليفة المستعصم بالله . وقد كبد المغول خسائر فادحة في غربي ايران وفي اذربيجان عند تقدم المغول اليها . انظر منهاج - ي - سراج ، طبقات - ي - ناصري ، الترجمة الانكليزية ح٢ - ص ١٢٢٦ - ١٢٢٨ .

مجاهد الدين الدوتدار الصغير كان اكثر قادة الجيش العباسي نفوذاً في زمن المستعصم بالله والدويدار او الدوادار او الداواتدار تعني حامل الدواة وهي من الالقاب العباسية المهمة أنظر E. I/2 S. V. Dawadar, (by D. Ayalon) .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

وبعد ان تم للمغول إخضاع قلاع الملاحدة ارسل هولاكو رساله اخرى الى بغداد يلوم فيها الخليفة على عدم المساعدة فاستشار الخليفة اعيان دولته فاشار عليه الوزير ابن العلقمي باسترضاء هولاكو بالمال والتحف والهدايا الا ان الدواتدار رفض هذا الراي مبينا فيه ان الوزير متواطيء مع هولاكو والاصح هوعدم ارسال شي الا القليل من الهدايا فقط فغضب هولاكو من هذا وطلب من الخليفة ان يقدم بنفسه وان لم يأت هو يجب ارسال احد ثلاثة اما الوزير اوالدواتدار الصغير او سليمان شاه . فلم يرسل الخليفة احد من هؤلاء بل اكتفى بارسال محي الدين بن الجوزي رسولا عنه «١» اما الذهبي فيذكر بان هولاكو في رسالته هذه طلب المفاوضة مع الدواتدار وسليمان شاه «٢» من هذا نلاحظ ان الوزير ابن العلقمي كان من المنادين بوجوب المصالحة مع هولاكو وبذل الاموال له واسترضائه حتى لايهجم على بغداد بينما كان الدواتدار وسليمان شاه من انصار الحرب وعدم الاستسلام. فهل ياترى لهذا السبب اتهم ابن العقلمي بالخيانة ؟ وما هو

---

(١) – نصير الدين الطوسي - كيفيت واقعة بغداد ، تحقيق محمد قزويني - منشورة في ذيل كتاب جهان كشاي – عطا ملك جويني ج ٣ لندن ١٩٣٧ ص ٢٨٠ – ٢٨٢ ، انظر ابن العبري – مختصر ، ص ٤٧١ – ٤٧٢ .

(٢) – الذهبي – تاريخ الاسلام - ج ٢٠ ورقة ٢١٠ – ٢١١ ، اما ابن الفوطي فيذكر ان هولاكو " ارسل الى الخليفه يطلب اما الدويدار الصغير او ولد الدويدار الكبير او سليمان شاه فلم يفعل وارسل شرف الدين بن الجوزي " الحوادث الجامعة ص ٣٢٠ . اما " ولــد الدويدار الكبير " فهو ابن تاج الدين الدوتدار الكبير وكان من رؤساء الجند وذا مكانة عسكرية بارزة في بغداد - رشيد الدين - جامع التواريخ - ج٣ قسم١ ص ٢١٠ . الترجمة العربية ، القاهرة – دار احياء الكتب العربية .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

سبب ميله الى الاستسلام بدون حرب ؟ هل كان الوزير عالما بضعف دولته وعدم مقدرتها على الوقوف امام هجمات المغول ؟ ام كان الوزير على اتفاق سري مع هولاكو واراد عدم التعرض له بحرب ؟ ولهذا نرى هولاكو يؤكد في رسالته على وجوب التفاوض مع الدواتدار وسليمان شاه وهم من الد اعداء الوزير والمنادين بالحرب وما ذهابهم الى هولاكو الا انه سيلقي القبض عليهم لان المغول لايرعون عهدا ولا ذمة وهكذا كان في بغداد حزبان متعارضان في موقفهم من المغول حزب ينادي بوجوب المهادنة واستعمال الوسائل السلميه لرد المغول وتجنب الدخول معهم بحرب كانت معروفة النتائج وكان على راس هذا الحزب الوزير ابن العلقمي . وحزب ثان كان يرى الحرب والمقاومة هي الوسيلة الناجحة في رد المغول على اعقابهم وانقاذ الخلافة من خطرهم وكان على راس هذا الحزب قواد جيش الخليفة البارزون وهم الدواتدار الصغير وابن الدواتدار وسليمان شاه وموقف هؤلاء العسكريين كان امراً طبيعيا لان مجرد التلويح بالصلح والاستسلام للعدو كان يعني الطعن والمساس بقدرتهم العسكرية وقوتهم وهي امور لايستسيغها العسكريون في كل زمان ومكان .

واخيرا رجحت كفة العسكريين ورفض الخليفة الاستسلام لهولاكو والاستماع الى نصيحة الوزير ابن العلقمي فاكتفى بارسال رسوله محي الدين بن الجوزي للتفاوض مع هولاكو الذي لم يرض عن هذا الوفد بل استشاط غضبا وارسل يطلب من الخليفة ان يهدم اسوار مدينة بغداد وان ياتي بنفسه امام

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

انخان ليرضى عنه وقد رفض الخليفة هذا الامر طبعا «١» وهكذا اصبح تقدم هولاكو نحو بغداد امرا محتما بسبب فشل المراسلات للوصول الى حل سلمي بين الطرفين .

وكان هولاكو بجانب تهيواته الحربية كان يعد العدة من اجل السيطرة على العراق وبغداد عن طريق بث الجواسيس وارسال الرسل بصورة سرية الى اشخاص كان يمكن ان يساعدوه في بث الرعب داخل بغداد وفي تثبيط الهمم لاضعاف مقاومة البغداديين «٢» . وعندما صمم هولاكو على قصد بغداد طلب من حسام الدين المنجم الذي كان مصاحبا له بامر القاآن أن يبين له الطالع فاخبره بانه ليس ميمونا قصد اسرة الخليفة والزحف على بغداد واذا اصر هولاكو على الذهاب فستظهر ستة انواع من الفساد : هي ان تنفق الخيول كلها ويمرض الجنود وان الشمس لا تطلع وان المطر لاينزل وتهب ريح صرصر وينهار العالم بالزلزال ولا ينبت النبات في الارض وان الملك الاعظم يموت في تلك السنة . وقد طلب هولاكو من نصير الدين الطوسي رايه في الامر وفي ما تقول النجوم فاخبره الطوسي بانه « لن تقع اية واقعة من هذه الاحداث بل العكس فان هولاكو خان سيحل محل الخليفة » وبين له فساد هذا المعتقد وشجعه على الزحف الى بغداد «٣» .

---

(١) – E. Bretschneider, Medieval Research from Eastrern Asiatic Sources, London, 1910 vol 1 , P. 118

(٢) – الذهبي دول الاسلام – ح ٢ ص١٢٢ ، تاريخ الاسلام ح ٢٠ الورقة ٢١٠ / أ والسبكي – طبقات الشافعية – ح ٥ ص ١١٤ .

(٣) – رشيد الدين – جامع التواريخ – ح ٢ قسم ١ – ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

« تحرك هولاكو نحو بغداد »

وكانت استعدادات المغول ضخمة فقد جند هولاكو عددا كبيرا من الجند للقيام بمغامرته هذه «١» وامر العديد من قواده البارزين بالتحرك لهذا الغرض . فامر جيوش حرماغون وبايجونويان اللذين كانت مراكزهما في بلاد الروم ان يسيرا على ميمنة جيشه وان يتقدما الى الموصل عن طريق اربل ثم تعبر جسر الموصل وتعسكر في الجانب الغربي من بغداد وان ترابط هناك في وقت معين حتى اذا قدمت الرايات من المشرق تخرج اليها من تلك الناحية .

وينضم الامراء «بلغا بن شيبان بن جوجي» و «توتار بن سكنقور بن جوجي» و «قولي بن اوردة بن جوجي» و «بوقا تيمور» و « سونجاق » الى الميمنة ايضا اما قوات كيتو بوقانويان وقدسون وترك ايلكا فتكون في الميسرة . اما هولاكو فقد بقي في القلب مع امراء كبار من امثال كوكا ايلكا وارقتو وارغون اقا «٢» .

وعندما بلغ اسد آباد اوفد رسولا لدعوة الخليفة مرة اخرى للحضور فكان الخليفة يماطل ويتعلل ووصل ابن الجوزي

---

(١) :- يذكر ابن كثير ان عدد الجيش المغولي المتاجه لبغداد كان يقرب من مائتي الف مقاتل . البداية والنهاية - ج ١٣ - ص ٢٠٠ . ويذكر نفس الرقم ابن حبيب في درة الاسلاك في دولة الاتراك . مخطوطة يني جامع رقم ٨٤٩ الورقة ٤٦ . اما ابن الفوطي فيذكر بان هولاكو سار نحو بغداد . بجيوش تملأ الفضاء . الحوادث الجامعة ص ٣٢٢ . اماابن الطقطقي فيذكر فلما وصل العسكر السلطاني - جيش بايجونوين - الى دجلة وهو يزيد على الثلاثين الف فارس) الفخرى ص ٤٥٣ .

(٢) :- رشيد الدين - جامع التواريخ ٢٨١ - ٢٨٢ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

الى دينور للمرة الثانية قادما من بغداد يحمل رسالة بالوعد والوعيد ومتلمسا ان يعود هولاكو ويتراجع في مقابل ان يسلم الخليفة لهولاكو كل ما يطلبة من اموال وتحف . فظن هولاكو ان الخليفة يريد من وراء عودة الجيوش ان يعد جنوده ويهيئهم لمقاومة المغول . فقال . «وكيف نترك زيارة الخليفة بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق . سوف نعود بعد الحضور للقائه والتحدث معه» . «١»

وفي شهر شوال سنه ٦٥٥- ١٢٥٧ تحرك هولاكو من همدان متجها الى العراق«٢» وفي طريقه ارسل رساله الى بغداد يقول فيها «اذا كان الخليفة قد اطاع فليخرج والا فليتاهب للقتال وليحضر الينا قبل كل شي الوزير وسليمان شاه والدواتدار ليسمعو ما نقول» «٣».

وفي التاسع من ذي الحجة ٦٥٥ - ١٢٥٧ وصل هولاكو شاطيء نهر حلوان وعسكر هناك وبقى الى الثاني والعشرين من ذللك الشهر «٤» وفي حلوان وضع هولاكو كافة مؤنه وثقله «٥»

---

(١) :- رشيد الدين - جمع التواريخ ص ٢٨٢ .

(٢) :- نصير الدين الطوسي - ذيل - ص ٢٨٢ .

(٣) :- رشيد الدين - ص ٢٨٤

(٤) :- رشيد الدين ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٥) :- نصير الدين الطوسي ص ٢٨٤ .

وعندما علمت بغداد بتقدم هولاكو سار جيش بقيادة الدواتدار وابن كرمن بغداد وعسكر على مقربة من بعقوبة «١» التي تبعد ٣٠ ميلا شمالي بغداد . الا ان الخليفة امر الدواتدار وبقية امراء الجيش عندما علم بقدوم جيوش المغول الى غربي بغداد بالتوجه لملاقاتهم فعبروا دجلة لملاقاة المغول «٢» وقد اشتبك جيش الخليفة بجيوش المغول التي كانت تحت قيادة سونجاق وبوقا تيمور في حدود الانبار على باب قصر المنصور على بعد تسعة فراسخ عن بغداد «٣» وقد مني المغول بخسارة فادحة على يد الدواتدار وابن كر وقد قتل من المغول عدد كبير وحملت رؤسهم الى بغداد «٤» للاحتفال بالنصر . وقد تمادى الدواتدار بانتصاره هذا فاخذ بمطاردة المغول وقد اشار عليه الاميرفتح الدين بن كر بان يبقى في محله خوفاً من الوقوع بكمين وحتى لا يبتعد عن بغداد كثيرا الا ان الدواتدار لم يستمع لهذه النصيحة فادركه الليل بعد ان تجاوز نهر دجيل . وهناك تصدت لهم قوات المغول بعد ان اجتمعت قوات سونجاق وبوقا تيمور بقوات بايجونوين «٥» وفي صباح اليوم التالي - كان يوم

---

(١) :- نصير الدين الطوسي - ص ٢٨٥ - رشيد الدين ص ٢٨٥ .
(٢) :- ابن الفوطي - ص ٣٢٣ .
(٣) :- رشيد الدين ص ٢٨٥ .
(٤) :- ابن الفوطي ص ٣٢٤ .
Bar-Hebreaus. The Chronography of ......vol . 1, PP.429 - 30 – (٥)

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

الخميس نهار عاشوراء ـ اي العاشر من المحرم سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ حملت عليهم عساكر المغول وقاتلوهم قتالا شديداً فلم تستطيع قوات بغداد الصمود فانكسرت وكروا راجعين الى بغداد فوجدوا ان فرعا من فروع نهر دجيل قد فاض في الليل وملا الصحراء فعجزت الخيول عن سلوكه ووحلت فيه وقد قتل عدد كبير من جيش بغداد كما قتل الامير ابن كر والامير قراسنقر «١» اما الدواتدار فقد فر هارباً مع نفر من جيشه ودخل بغداد «٢» .

وفي يوم الثلاثاء منتصف المحرم من السنة قدم بوقا تيمور وبايجو وسونحاق الى بغداد واستولوا على الجانب الغربي «٣» ونزل بايحونوين في محلة القرية مقابل دار الخلافة تماماً «٤» وكان هذا الجزء من بغداد قد خلى من اهلة حيث التجئوا الى بغداد الشرقية ومن هناك اخذ المغول بالرمي بالنشاب الى الجانب الشرقي فكانت السهام تصل الى الدور الشطانية «٥» .

وقد تحرك هولاكو من خانقين حيث ترك معسكراته وواصل سيره الى بغداد ونزل في الجهة الشرقية منها في اليوم الحادي

---

(١) :- نفس المصدر اب عد وانظر كذلك ابن الفوطي ص ٣٢٤ . ويضيف رشيد الدين ص ٢٨٥ انه قتل في هذة الموقعة ٠٠٠ و١٢ جندى من ء كر بغداد فضلا عن غرق او قضى نحبه في الوحل .

(٢) :- انظر ابن الفوطي - ص ٣٢٤ . رشيد الدبن ص ٢٨٦ .

(٣) :- رشيد الدين ص ٣٢٥

(٤) :- ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٩ . وانظر كذلك ابن الطقطقي . الفخرى ص ٤٥٤ .

(٥) :- ابن الفوطي - ص٣٢٥ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

عشر من المحرم سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ واحاط بجيشه الضخم جميع جهات بغداد الشرقية «١» وحال وصوله امر ببناء سور حول بغداد وحفر خندقاً ايضا ليقي عسكره من هجمات جيش بغداد . وبنى المغول سوراً اخر في بغداد الغربية ونصبت المنجنيقات بازاء سور بغداد من جميع الجوانب كما رتبوا العرادات والات النفط «٢» . ويعطينا ابن الفوطي وصفاً شيقاً لهذا السور الذي بناه هولاكو فيقول « فامر بحفر خندق وبنى بترابه سور محيط ببغداد وعمل له ابواب رتب عليها امراء المغول وشرعوا في عمل ستائر للمناجيق ونصبوا المناجيق والعرادات واستظهروا غاية الاستظهار والناس يشاهدون ذلك من السور» «٣»

وقد احتاط هولاكو بالاضافة الى الطوق الذي وضعه حول بغداد من البر ان يمنع الهرب بالسفن في دجلة فوضع جسراً تحت بغداد ليمنع من ينحدر الى واسط فعقد هذا الجسر تحت قرية العقاب، ولم يعلم به اهل بغداد، فكانت السفن تصل اليه وكان المغول ياخذون من بها ويقتلونهم فقتل عنده خلق كثير «٤»

---

(١) :- رشيد الدين ص ٢٨٦ . اما ابن الفوطي فيضع تاريخ وصول هولاكو الى بغداد يوم الثاني عشر من المحرم . ابن الفوطي ص ٣٢٥ . اما نصير الدين الطوسي فيضع تاريخ وصوله بمنصف المحرم . رسالة نصير الدين في فتح بغداد ص ٢٨٦ . اما ابن الطقطقي فيضع تاريخ وصول هولاكو بيوم الخميس رابع محرم . الفخرى ص ٤٥٤ . والارجح هو ماذكرة رشيد الدين .

(٢) :- ابن العبرى . تاريخ مختصر الدول ص ٤٦٣ . نصير الدين الطوسي ص ٢٨٦ .

(٣) :- ابن الفوطي . ص ٣٢٥ انظر الكازروني مختصر التاريخ - مخطوطة - مكتبة جارالله ١٦٢٥ - استانبول - الورقة ٩٥ /أ .

(٤) :- ابن الفوطي ص ٣٣٦ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

اما بغداد فقد استعدت للحصار ونصبت المناجيق على السور الا انها «لم تصح ولا حصل بها انتفاع ». «١» ويقول الكازروني عن وضعية الدفاع في بغداد . «واما عسكر البغادده فانهم وقفوا على السور ونصبوا مناجيقهم وشرعوا في الرمي فلم يصيبوا شيئاً ولا تعداهم حجر وتعطلت العرادات وغيرها وتقدم الخليفة باقامة جماعة من الرماة على السور واطلق مال كثير اليهم فخرج جماعة من الاعيان واعوان الديوان والمال معهم وشرعوا في اثبات واطلاق اليسير وسرقة الباقي شرها الى المال» «٢» .

كل هذا يدل على ان وسائل بغداد الدفاعية كانت ضعيفة ولا تقوى على مقاومة الهجوم المغولي .

وقد استمر الجيش المغولي باعداد عدة الحصار وتهيئة وسائل الحرب الى يوم الثلاثاء المصادف الثاني والعشرين من المحرم حيث بدأوا هجومهم على بغداد وكان هولاكو في القلب معسكراً في مقابلة برج العجمي . اما ايلكانويان وقربغا فكان على بوابة كلواذى . اما قولي وبولغا وتوتار وشيرامون وارقيو فقد نزلوا في عرض المدينة في مواجهة بوابة سوق السلطان . وكان بوقا تيمور يقف في جهة القلعة وجانب القبلة بموضع .«دولاب بقل» . وكان بايجوا وسونجاق يرابطان في الجانب العربي حيث المارستان العضدي وكان الجميع

---

(١) :- نفس المصدر السابق ص ٣٢٥ .

(٢) :- الكازروني . مختصر التاريخ . الورقة ٩٠ أ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

يحاربون ويرمون على بغداد «١» . وكان تركيز الهجوم المغولي في الجهة الشرقية من بغداد على برج العجمي «وهو موضع مستضعف » «٢» من سور بغداد كما كان اقصر ابراج السور ويقع على مقربة من باب كلوذاي «٣» .

وقد حاول الخليفة الخروج من هذا المازق فارسل وفداً مكوناً من الوزير ابن العلقمي والجاثليق مارمكيكا ليتفاوض في الصلح طالباً من هولاكو عدم مهاجمة بغداد قائلا . «ان الملك قد امر بان ابعث اليه الوزير وهأنذا قد لبيت طلبه فينبغي ان يكون الملك عند كلمته . فاجابه هولاكو . ان هذا الشرط طلبته وانا على باب همدان اما الان فنحن على باب بغداد وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة فكيف اقنع بواحد ؟ينبغي ان ترسل هولاء الثلاثة ,يعني الدواتدار وسليمان شاه والوزير » . «٤» وقد خرج هذا الوفد لملاقاة هولاكو مع هدايا فخمة ولكن هولاكو لم يرض عن شروط الصلح كما انه حجر على الوفد من يوم الرابع عشر من المحرم الى يوم السابع عشر منه حيث سمح له بالرجوع الى بغداد «٥» .

---

(١) :- رشيد الدين ص ٢٨٦ . كذلك نصير الدين الطوسي - ص ٢٨٦ - ٢٨٨ .

(٢) :- الكازروني - الورقة ٥٩ /أ

(٣) :- ابن الطقطقي - الفخري ص ٤٤٤ . وكذلك يقع هذا البرج عن يمين باب سور الحلبة . ابن الفوطي ص ٣٢٦ .

(٤) :- رشيد الدين ص ٢٨٦ - ٢٨٨ . الطوسي - ص ٢٨٨ .

(٥) :- انظر ابن الفوطي ص ٣٢٦ .

Bar - Hebreaus vol. I . P. 430

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

وفي اليوم التالي خرج الى هولاكو الوزير وصاحب الديوان وجمع من مشاهير بغداد للتوسط في الصلح ولكن هولاكو اعادهم دون فائدة تذكر «١» .

ودارت رحى حرب طاحنة مدة سته ايام واستخدم المغول الحجاره التي جلبوها من جبل حمرين وجلولاء في ضرب المدينة بالمناجيق كما كانو يقطعون النخيل ويرمون بقطعها بدلا من الحجارة «٢» ثم رمى المدينة بوابل من السهام مربوط فيها منشورات تفيد بأن «الاكاونية والعلويين والداذنشمندية وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمة واموااله» «٣» .

وقد ترددت الاحوال في بغداد كثيراً ويئس الناس من النجاة حتى ان الدواتدار اراد ان يهرب بالسفن من بغداد ولكنه بعد ان اجتاز قرية العقاب اطلق جند بوقا تيمور حجارة المنجنيق والسهام وقوارير النفط على سفنه واستطاعوا ان يستولوا على ثلاثة سفن واهلكوا من فيها وقد اضطر الدواتدار الى العودة كرة اخرى الى بغداد «٤» .

وبعد قتال شديد استطاع المغول ان يحدثوا ثغرة في برج

---

(١) :- رشيد الدين ص ٢٨٦ .

(٢) :- رشيد الدين ص ٢٨٦ . العلوسي ص ٢٨٨ .

(٣) :- ابن العبرى - مختصر الدول - ص ٤٧٤ . اما رشيد الدين فيقول ان هذه المنشورات كانت تفيد بان.(القضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجار وكل من لا يحاربنا لهم الامان منا) .. جامع التواريخ ص ٢٨٧ .

(٤) :- رشيد الدين ص ٢٨٨ . نصير الدين الطوسي ص ٢٨٩ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

العجمي في يوم الجمعة الخامس والعشرين من المحرم . وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين منه تسلق جنود المغول السور من برج العجمي واستطاعوا ان يطهروا اعالي اسوار بغداد من الجند . وفي مساء ذلك اليوم تمت سيطرة المغول على كافة الاسوار الشرقية لمدينة بغداد . ولزيادة الاحتياط امر هولاكو باقامة جسر في اعلى بغداد واخر في اسفلها وان يعدوا السفن وينصبوا المنجنيقات ليمنعوا اي انسان من الهرب بالسفن بعد ان انهارت مقاومة بغداد «١» .

ولما يئس الخليفة من الاحتفاظ ببغداد ،لم ير امامه وسيلة سوى الاستسلام فارسل فخر الدين الدامغاني وابن الدرنوس مع تحف وهدايا لهولاكو ليحصلوا له على الامان الا ان هولاكو لم يجبه الى ذلك وعاد الوفد الى بغداد. وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من المحرم ارسل الخليفة ولده الاوسط ابا الفضل عبد الرحمن معه صاحب الديوان وجماعة من العظماء حاملين معهم اموالا عظيمة لاسترضاء هولاكو الا انها لم تقبل منهم. وفي اليوم التالي -آخر- المحرم خرج ابن الخليفة الاكبر مع الوزير وجماعة من المقربين للشفاعة فلم يجدوا فائدة وعادوا الى المدينة في اليوم التالي اي غرة صفر وكان بصحبتهم الخواجة نصير الدين وايتيمور حاملين رسالة الى الخليفة . كما ارسل هولاكو

---

(١) :- رشيد الدين ص ٢٨٧ . نصير الدين الطوسي ص ٢٨٨ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

فخر الدين الدامغاني وابن الجوزي وابن الدرنوس الى المدينه لاخراج سليمان شاه والدواتدار منها ومنحهم « فرمانا وبايزة تطميناً لهم وتقوية لموقفهم » . «١» وعلى ما يظهر فان هولاكو كان لايطمئن حتى يلقي القبض على قادة جيش بغداد .

وقد خرج سليمان شاه والدواتدار في نفس اليوم الى هولاكو فاعادهما الى المدينة ليخرجا اتباعهما كافة وطمانهم بانه سيسمح لاتباعهم باللجوء الى مصر والشام «٢» . ولكن المغول كعادتهم في حفظ عهودهم قتلوا الدواتدار وسليمان شاه والامير تاج الدين بن الدواتدار الكبير مع كافة الجند الذين خرجوا معهم . وارسل رؤوس الامراء الثلاثة الى الموصل مع الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ لتعلق في مدينة الموصل «٣» تخويفاً لاهل الموصل بتعليق رؤوس الثلاثة المؤيدين لحرب المغول من اجل ردع كل من تسول له نفسه مقاومة المغول والدخول معهم بحرب . وكان بدر الدين صديقاً لسليمان شاه فبكى عندما رأى رأسه ولكنه علق رؤوسهم خوفاً على حياته «٤» .

وفي يوم الاحد المصادف الرابع من صفر سنة ٦٥٦ـ١٢٥٨ خرج الخليفة من بغداد يصحبه اولاده الثلاثه : ابو الفضل عبد الرحمن وابو العباس احمد وابو المناقب مبارك ومعه ثلاثة

---

(١) :ـ رشيد الدين ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .
(٢) :ـ نفس المصدر السابق ص ٢٨٩ .
(٣) :ـ نفس المصدر السابق ص ٢٩٠ . انظر كذلك ابن الفوطي ص ٣٢٩ .
(٤) :ـ رشيد الدين ـ ص ٢٩٠ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

الاف من السادات والائمة والقضاة والاكابر واعيان المدينة وقابل هولاكو. وقد طلب منه هولاكو ان يامر اهل بغداد بوضع اسلحتهم والكف عن مقاومة المغول. وكذلك ليخرجوا لاحصائهم: فارسل الخليفة من ينادي في المدينة ليضع الناس اسلحتهم ويخرجوا. فالقى الناس اسلحتهم زمرا زمرا وصاروا يخرجون فكان المغول يقتلونهم «١». واقيمت للخليفة وابنائه الخيام بالقرب من بوابة كلوذاي في معسكر كيتو بوغا نويان «٢».

وكان بدء القتل العام والنهب في بغداد في يوم الاربعاء السابع من صفر. فدخل الجند المغول الى المدينة واخذوا بنهب وحرق المدينة وقتل كل من يصادفهم من اهلها وقد استمر النهب والسلب والقتل لمدة سبعة ايام «٣» وقد نجا من تدميرهم بعض منازل العامة وقد نجا النصارى من فتك المغول رعاية لطقز خاتون – زوجة هولاكو النصرانية – «٤» فقد عين لهم حراساً من المغول حرسوا بيوتهم والنجا اليهم

---

(١) :- رشيد الدين ص ٢٩٠ - ٢٩١

(٢) :- نفس المصدر السابق ص ٢٩١.

(٣) :- رشيد الدين. ص ٢٩١. نصير الدين الطوسي ص ٢٩٠ ابن العبرى ص ٤٧٥. اما ابن الفوطي فيضع مدة الاستباحة على انها كانت ٤٠ يوما. الحوادث الجامعة ص ٣٢٩ أنظر كذلك ابن كثير البداية ح ١٣ ص ٢٠٢. الذهبي تاريخ الاسلام. ج ٢ ورقة ١٥٥ ب. المقريزى الملوك - ج١ قسم ٢ ص ٤١٠. اما السبكي فيضع الرقم على انه (بضعاً وثلاثين يوماً) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٥ ابن تغري بردى، النجوم ح ٧ ص ٥٠

(٤) - رشيد الدين - ص ٢٢٠.

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

خلق كثير من المسلمين فسلموا معهم « ١ » وسلم من القتل جماعة من التجار الذين كانت لهم علاقات تجارية مع المغول ـ او كانوا جواسيس لهم على بغداد . كما ان دار الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي ابقى عليها وسلم بها خلق كثير . وكذلك دار صاحب الديوان ابن الدامغاني ودار صاحب الباب ابن الدوامي « ٢ » . وقد اختلف المؤرخون اختلافاً شديداً في ذكر عدد القتلى . فيقول صاحب كتاب الحوادث الجامعة « ان عدد القتلى زاد عن ثمانمائة الف نفس عدا من القي من الاطفال في الوحل ومن هلك في القني والابار وسراديب الموت جوعاً وخوفاً » (٣) ويذكر الذهبي« ثم امر هولاكو بعد ذلك بعد القتلى فبلغوا الف الف وثمانمائة الف وكسر والاصح انهم بلغوا ثمانمائة الف « ٤ »

اما المقريزى فيقول « وامر هولاكو بعد القتلى فبلغت نحو الالفي الف قتيل » « ٥ » اما ابن دقماق فيقول « وقتل اكثر اهل

---

(١) ـ اما ابن العبري في تاريخية باللغة السريانية فيقول ان الجاثليق جمع كافة النصارى الموجودين في بغداد في كنيسة سوق الثلاثاء وهناك حماهم من القتل ولم يصب اي منهم بأذى . وقد حاول كثير من المسلمين الاغنياء التقدم بهدايا عظيمة الى الجاثليق ليحميهم وكانت حيلة ماهرة منهم على أمل ان ينقذوا ارواحهم وبعد ذلك يستطيعوا ان يسترجعوا كل ما دفعوه للجاثليق ولكن جميعهم قتلوا ونهبت اموالهم .

Bar - Hebreaus , The Chronogarphy . . . , vol . 1 , P . 431

(٢) ـ ابن لفوطي ـ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

(٣) ـ نفس المصدر السابق ص ٣٣١ .

(٤) ـ تاريخ الاسلام ـ ح ٢٠ ـ ورقة ٢١٢/أ ـ انظر كذلك ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ح ١٣ ص ٢٠٢ ، ابن تغرى بردي ـ النجوم ـ ح ٧ ـ ص ٥٠ .

(٥) ـ المقريزي ـ السلوك ـ ص ٢١٠ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

بغداد حتى قيل ان عدد من قتل يزيد على الفي الف وثلثمائة الف وثلاثين انسان » « ١ » وهذه الارقام لايخفى ما فيها من مبالغة لان سكان بغداد الكلي انذاك لايمكن ان يصل الى هذه الارقام لان سعة بغداد انذاك كانت صغيرة ممتدة بين باب المعظم والباب الشرقي ومن النهر غرباً حتى متحف الاسلحة شرقاً وهذه الرقعة صغيرة نسبياً ولا يمكن ان تضم عددا يربو على المليون « ٢ » .

لهذا نستطيع ان نقول ان ما اورده الرحاله الصيني **Ch'Ang Te** المعاصر للغزو في رحلته المسماة **Si Shi Ki** عن عدد القتلى هو الاصح حيث يذكر ان عدد القتلى بلغ بضع عشرات من الالاف ،على الاغلب لا يتجاوز الرقم الثمانين الفا فقط « ٣ » .

وفي يوم الجمعة التاسع من صفر دخل هولاكو مدينة بغداد لمشاهدة قصر الخليفة وجلس هناك مع امرائه وامر باحضار الخليفة فاحضر بين يدية وطلب منه ان يدله على جميع ممتلكاته الظاهرة للعيان والمخفيه فاعطاه الخليفة كل ما يملك من ذهب وفضه واحجار كريمه ومخلفات الخلفاء العباسيين القيمة فوزعها هولاكو على امرائه وقادة جيشه وفرسانه البارزين . ثم خرج هولاكو من بغداد الى معسكره حيث بقى فيه الى اليوم الرابع

---

(١) – ابن دقماق ــ كتاب الجوهر الثمين ــ مخطوطه ابا صوفيا ، الورقة ٧٠ .
(٢) انظر جعفر خصباك ــ العراق في عهد المغول الايلخانيين ــ بغداد ١٩٦٨ .. ص ٥٦ .
(٣) E . Bre : hneider, Medieval Research from Eastern Asiatic Sourc London 1910 , vol 1 , P. 138 - 39

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

عشر من صفر « ١ »

وفي هذا اليوم رحل هولاكو خان عن بغداد بسبب عفونة الهواء ونزل بقريتي «وقف وجلابية» « ٢ » .

وهناك بنفس اليوم ـ الاربعاء المصادف ١٤ صفر ـ قضى على الخليفة وعلى ابنه الاكبر وعلى خمسة من الخدم كانوا في خدمته في قرية «وقف». وفي اليوم التالي قتل الذين كانوا قد نزلوا معه في بوابه كلوذاى . كذلك قضى المغول على كل شخص وجدوه حياً من العباسيين اللهم الا افراداً قلائل لم يابهوا بهم . وقد سلم مبارك شاه الابن الاصغر للخليفة الى اولجاى خاتون فارسلته الى مراغة ليكون مع الخواجه نصير الدين . وهناك زوجوه من امرأة مغولية فانجب منها ولدين . وفي يوم الجمعة السادس عشر من صفر الحقوا الابن الثاني للخليفة بوالده . وبذلك قضى على دولة خلفاء بني العباس « ٣ » .

---

(١) ـ الطوسي ص ٢٩٠ . رشيد الدين ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

(٢) ـ رشيد الدين ص ٢٩٣ .

(٣) ـ رشيد الدين ص ٢٩٤ . نصير الدين الطوسي ص ٢٩١ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

بقدر ما اثارت قصة غزو المغول لبغداد واحتلالها من اقاصيص واساطير فان موت الخليفة المستعصم اثار الكثير من التساؤلات: فقد ذكرت بعض القصص والاساطير الطريفة عن مقتله وعن معاملة هولاكو له قبيل موته مقتولا بيد المغول .

فيقول نصير الدين الطوسي في رسالته عن فتح بغداد ـ وهو شاهد عيان لهذه الحادثة ـ ان هولاكو ذهب لرؤية قصر الخليفة وتجول فيه وكان الخليفة حاضرا معه وكشف لهولاكو عن كافة الكنوز التي كانت مخبأة في قصوره واعطاها له . وقد وزعها هولاكو على القواد والجيش ثم وضع طبقاً من الذهب امام الخليفة وامره باكله فاجابه الخليفة بانه لايستطيع ان ياكله لانه لايؤكل فساله هولاكو « لماذا احتفظت به اذاً ولم تعطه لعسكرك وعملت الاسهم من هذه الابواب ولم تأت الى سواحل جيحون من اجل ان توقف تقدمنا ؟ فاجاب الخليفة بانه قدر الله فقال له الملك كل ما حدث لك فسيكون هو قدر الله» . «١»

وهذا اقدم نص عن قضية صحن الذهب الذي وضع امام الخليفة ليأكله وعلى ما يظن فان القصص التي وردت في بقية المصادر التاريخية قد اخذت من نصير الدين الطوسي مع تحويرات واضافات كثيرة . فيقول ابن الفرات في تاريخه عن هذه الحادثة «ثم امر ـ هولاكو ـ بالخليفة فجوع الى ان

---

(١) ـ الطوسي ـ ص ٢٩٠

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

بلغ منه الجوع مبلغاً عظيماً فسأل ان يطعم شيئاً فأمر اللعين هولاكو له بطبق فيه ذهب وطبق فيه فضة وطبق فيه جوهر فاحضر ذلك بين يدي الخليفة المستعصم بالله وقيل له : كل هذا فقال هذا لايؤكل . فقال هولاكو : اذا كنت تعلم انه ما يؤكل فلم ادخرته كنت صانعت ببعضه اواستخدمت به جيشاً تلقانا به . . . .الخ «١» .

اما المؤرخ الارمني جريجور الاكانجي فيروي رواية طريفة عن مقتل الخليفة فيقول « وقد اسروا الخليفة ـ صاحب بغداد مع جميع كنوزه وجيء به امام هولاوو «هولاكو» وعندما راه هولاوو وسأله « هل انت رب بغداد ؟ » فاجاب « نعم انا» عند ذلك امربه فرمى في السجن لمدة ثلاثة ايام بدون خبز او ماء وبعد ثلاثة ايام امر « هولاوو » به فاحضر امامه فلما حضر امامه ساله « كيف انت الان » فاجاب الخليفة غاضبا ـ وكانه يحاول اخافة هولاوو ـ « اي نوع من الرجال انت ؟ » ثم قال « هل هذه هي انسانيتك بان تتركني جائعا لمدة ثلاثة ايام ؟ » وقبل ذلك ـ اي قبل استسلامه لهولاكو ـ قال الخليفة لسكان بغداد « لاتخافوا فاذا ماقدم التتار فانني سوف احمل رايه محمد واخرج بها واذا ما عملت هذا فان خيالة التتر ستفر ونتخلص منهم » وعندما سمع هولاوو بهذا غضب غضبا شديدا . ثم امر بطبق من الذهب الاحمر فوضع امامه وعندما جاؤا به سأل الخليفة « ماهذا ؟ » فقال هولاوو

---

(١) ـ ابن الفرات ـ تاريخ ابن الفرات ، مخطوطة الفاتيكان (عرب ٧٢٦) الورقة ١٩٦ب انظر كذلك

G. Le strange, The Story of the death of the Last Abbasid Caliph, from the Vatican MS. of Ibn al-furat, J.R.A.S. 1900 PP. 293 - 300

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

« هذا ذهب كله حتى يطفيء ظمأك وتشبع وتمتليء » فقال الخليفة « لايشبع الانسان باكل الذهب ولكن بالخبز واللحم والخمر « كذا » » فقال هولاوو للخليفة « فاذا كنت تعرف بان الانسان لايعيش بالذهب الصلد ولكن بالخبز واللحم والخمر ؟ فلماذا لم ترسل كميات كبيرة من الذهب لي حتى لا آتي الى هنا واحطم المدينة وأاسرك ؟ وبدلا من ذلك لم تأبه بمصيرك بل داومت على الاكل والشراب » ثم امر هولاوو بان يوضع تحت اقدام جنده وهكذا قتل خليفة العرب » «١» .

من كل ماسبق نلاحظ ان المؤرخين حاولوا التعريض ببخل الخليفة وانه كان مهتما بجمع المال تاركا لامور الدولة مؤكدين على ان هذه الامور هي التي ادت الى نكبته ونكبة الخلافة العباسية معه. وعلى مايظهر فان هذه هي الاشاعات التي حاول بها انصار الوزير ابن العلقمي الدفاع بهاعن وجهة نظر سيدهم بوجوب مصانعة المغول ودفع اذاهم عن بغداد والخلافة باكثر مايمكن من المال حتى لاتودي الاحوال الىماادت اليه. ولكن هذا يثير امامنا بعض التساؤل..هل ان هدف هولاكو عندما ارسل من العاصمة المغولية لاخضاع ايران والعراق كان فقط هو للحصول على المال والذهب ؟ الجواب كلا لان المغول كانو يستطيعون الحصول عليه عن طريق الغارات التي كانوا

Grigor of Akanc : History of the nation of Arches, ed and (١) Translated by R.P. Black & R. N. Frye , H. J. A. S. XII (1949) PP. 333-35 .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

يشنونها على الاجزاء المعمورة والمجاورة لهم وكانت هذه الغارات تكلفهم القليل من الجهد والبذل . ولكن من دراستنا لسياسة هولاكو مع قلاع الاسماعيلة ومع غربي ايران نلاحظ انه كان يرمي الى الفتح المنظم الهادف . الى السيطرة التامة والاخضاع النهائي لهذه المناطق . ومن دراساتنا لتقدم المغول نحو العراق وبغداد بالذات نلاحظ ان هولاكو كان مهتما جدا باخضاعها والسيطرة عليها ليس فقط لاهميتها الاستراتيجية والاقتصادية ولكن لمكانة بغداد وخليفتها من نفوس المسلمين «١» الذين كانوا يكونون نسبة هائلة من رعايا الامبراطورية المغولية لان الخليفة - ولوا سميا - هو الزعيم الاعلى للمسلمين وكان من الممكن ان يثير الكثيرمن المتاعب للمغول عن طريق اثارة رعاياهم المسلمين باثارة حميتهم الدينية ضد الغزاة الكفرة فكان لابد لهولاكو من القضاء على الخلافة ومركزها وعلى الجيش العباسي العريق الذى كان له اعمق الاثار المعنوية على نفوس المسلمين . هذا بالاضافة الى تأثير زوجته المسيحية وكرهها للاسلام ولرمزه قد يكون له اثر مهم على تصرفه هذا تجاه الاسرة العباسية وتجاة بغداد . ولما بقيت الخلافة شاغرة شعر الناس بفراغ كبير مما حدى بالمؤرخين الى تدوين هذا الشعور . وعندما جاء بيبرس البندقداري الى حكم مصر كان اول ماعمل هو انه

---

(١) - انظر الفخرى - ابن الطقطقي - ص ١٩٠ . قارن ماكتبه Boyle في :
J. A. Boyle. 'The death of the Last Abbassid Caliph J. S. S. VI/2 (1961) pp. 145 - 61

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

عين خليفة وادعى انه من بقايا الاسرة العباسية . كل هذا ليسد فراغ الخلافة وليستفيد منه في مقاومة المغول . فقد كان اول واجب عمله الخليفة الجديد هو اصداره تقليدا بالسلطنة لبيبرس وقام هذا الاخير بارساله على راس جيش الى العراق ليحرره من المغول – على امل التفاف المسلمين حوله ضد المغول – وعلى الرغم من فشل بيبرس في هذا المشروع الاان بقاء خليفة ولو صوريا كان له ابلغ الاثر على نفوس المسلمين المعتادين على وجود خليفة لهم – كانت له سلطة فعلية اولم تكن –

ومما يؤيد هذا القول ما يذكره ابن الطقطقي عن منزلة الخليفة في نفوس المسلمين وقد «كان للخليفة منزلة رفيعة في نفوس الناس حتى ان السلطان هولاكو لما فتح بغداد واراد قتل الخليفة المستعصم القوا الى سمعه انه متى قتل الخليفة اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر والنبات فاستشعر لذلك ..الخ» «١» وهذا جعل هولاكو يتردد كثيرا في قتل الخليفة ولا يقدم على قتله الابعد استشارة عالم كبير من علماء المسلمين المرافقين له وهو نصير الدين الطوسي الذي افتاه بان قتل الخليفة سوف لن يؤدي الى اى خطر او مكروه «٢» لان « علي بن ابي طالب كان خيرا من هذا الخليفة باجماع العالم ثم قتل ولم تجر هذه المحذورات وكذلك الحسين وكذلك اجداد هذا الخليفة قتلوا وجرى عليهم كل مكروه وما

---

(١) – الفخري في الاداب السلطانية – ص ١٩٠ – ١٩١ .

(٢) – السبكي – طبقات الشافعية ج ٥ – ص ١١٤ – ١١٥ وابن كثير – البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

احتجبت الشمس ولا امتنع القطر فحين سمع ذلك زال ما كان قد حصل في خاطره » «١» واخيرا امر هولاكو بالخليفة فقتل بان وضع في غرارة وشدوا عليه ورفسوه بالارجل الى ان توفي دون ان يراق دمه لان « بعض المسلمين اخافوا الملك – هولاكو – بان قالوا له انه اذا سفك دم الخليفة على الارض فسوف لن تنزل المطر وستصعد اعمدة من النار من مكان الدم المسفوك » «٢» اماابن كثير فيقول عن مقتل الخليفة « فقتلوه رفسا . وهو في جوالق لئلا يقع على الارض شي من دمه خافوا ان يؤخذ بثاره . فيما قيل لهم . » «٣» اما ابن حبيب فيذكر ان هولاكو امر « بان يجعل في عدل ويداس بالارجل الى ان يموت ففعل به ذلك ورحل الى رحمة الله تعالى . وهذه عادة التتار ان لا يسفكوا دماء الملوك والاكابر » «٤» ثم دفن وعفى اثر قبره «٥» .

---

(١) – ابن الطقطقي – الفخري في الاداب السلطانية – ص ١٩٠ – ١٩١ .مع العلم بان المؤلف يعطف كثير عن المغول في كتابه هذا .

(٢) – Bar-Hebraeus, The Chronography of......Vol. I, P. 431

(٣) – البداية – ح ١٣ ص ٢٠١ .

(٤) – ابن حبيب ، ٧٣٢ درة الاسلاك في دوله الاتراك ح ٢ ورقة ١/١٥ و ب مخطوطة يني جامع رقم ٨٤٩ .

(٥) – ابن الفوطي – ص ٣٢٦

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

«انطباع المسلمين عن سقوط بغداد»

كان تفجع المسلمين لسقوط بغداد شديداً فقد كان خطباً جللا . فيقول اليونيني المعاصر لهذه الحادثه «وما دهي الاسلام بداهيه اعظم من هذه الداهية ولا افضع » «١» . ويقول السبكي عن سنة ٦٥٦ـ اي سنة سقوط بغداد ـ « سنة ست وخمسين وستمائه وهي السنة المصيبة باعظم المصائب المحيطة بما فعلت من المصائب المقتحمة اعظم الجرائم الواثبة على اقبح العظائم الفاعلة بالمسلمين كل قبيح وعار النازلة عليهم بالكفار والمسمين بالتتار ولا باس بشرح واقعة التتار على الاختصار حكاية كائنة بغداد لتعتبر بها البصائر وتشخص عندها الابصار وليجري المسلمون على عمر الزمان دموعهم دماً وليروي المؤرخون بانهم ما سمعوا قبلها واقعة جعلت السماء ارضا والارض سماء » «٢» ويقول الذهبي «فانا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرنا في مصيبتنا التي لم يصب الاسلام واهله بمثلها» «٣» ويظهر تفجع المسلمين المعاصرين للواقعة واضحا فيما قيل من اشعار في رثاء بغداد . ولدينا العديد من القصائد التي قالها شعراء معاصرون تظهر مدى تفجعهم لاحتلال بغداد فالشاعر تقي الدين بن ابي ايسر الشامي «٤» نظم قصيدة رائعة يصف

---

١ – اليونيني – نيل ح ١ – ص ٨٥ .

٢ – طبقات الشافعية – ح ٥ – ص ١٠٩ .

٣ – تاريخ الاسلام ح ٢٠ .

٤ – كان كاتبا للانشاء لدى الملك الناصر داؤد الحاكم الايوبي على قلعة الكرك وقد توفي عام ٦٦٢هـ انظر ترجمته في ابن شاكر الكتبي – فوات الوفيات ح١ – ص ٢١ – ٢٢ وشذرات الذهب ح٥ – ص ٣٣٨٠ – طبعة بيروت .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

فيها اخذ بغداد معبراً عن عوطف المسلمين اصدق تعبير وذاكراً فيها كيفية اخذ بغداد والماسي الحاصلة نتيجة ذلك يقول :

لسائل الدمع عن بغداد اخبار
فما وقوفك والاحباب قد ساروا
يازائرين الى الزوراء لا تغدوا
فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والرابع الذى شرفت
به المعالم قد عفاه اقفار
اضحى لعطف البلى في ربعه اثر
وللدموع على الاثار اثار
يانار قلبي من نار لحرب وغى
شبت عليه ودافى الربع اعصار
علا الصليب على اعلى منابرها
وقام بالامر من يحويه زنار
وكم حريم سبته الترك غاضبة
وكان من دون ذاك الستر استار
وكم بدور على البدرية اتحسنت
ولم يعد لبدور منه ابدار
وكم ذخائر اضحت وهي شايعة
من النهاب وقد حازته كفار
وكم حدود اقيمت من سيوفهم
على الرقاب وحطت فيه اوزار

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

ناديت والسبي مهتوك تجرهم

الى السفاح من الاعداء ذعار

وهم يساقون للموت الذي شهدوا

النار يارب من هذا ولا العار

والله اعلم ان القوم اغفلهم

ما كان من نعم فيهن اكثار

فاهملوا جانب الجبار اذ اغفلوا

فجاءهم من جنود الكفرجبار

يا للرجال باحداث تحدثنا

مما غدا فيه اعذار وانذار

من بعد اسر بني العباس كلهم

فلا انار لوجه الصبح اسفار

ما راق لي قط شيء بعد بينهم

الا احاديث اورويها وآثار

لم يبقى والدنيا وقد ذهبوا

سوق لمجد وقد بانوا وقد باروا

ان القيامة في بغداد قد وجدت

وحدها حين للاقبال ادبار

آل النبي واهل العلم قد سبيوا

فمن ترى بعدهم تحويه امصار

ما كنت آمل ان ابقى وقد ذهبوا

لكن اتى دون ما اختار اقدار

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

ويذكر الذهبي ان القصيدة اطول من ذلك وجملتها ٦٦ بيتاً «١» . والقصيدة بصورة عامة تستحق القراءة والدرس لانها نموذج حي لعواطف المسلمين لسقوط الخلافة العباسية وبغداد

اما الشاعر شمس الدين محمد بن عبدالله الكوفي الواعظ فقد نظم العديد من القصائد في رثاء بغداد وصلتنا منها ثلاث قصائد جميعها تشرح عواطف اهل العراق تجاه سقوط الخلافة وبغداد يقول في اولاها :

-بانوا ولي ادمع في الخد تشتبك
ولوعة في مجال الصدر تعترك
-بالرغم لا بالرضى مني فراقهم
ساروا ولم أدر اي الارض قد سلكو
-ياصاحبي ما احتيالي بعد بعدهم
اشر علي فان الرأي مشترك
عز اللقاء وضاقت دونه حيلي
فالقلب في امره حيران مرتبك
يعوقني عن مرادى ما بليت به
كما يعوق جناحي طائر شرك
اروم صبراً وقلبي لا يطاوعني
وكيف ينهض من قد خانه الورك
ان كنت فاقد الف نح عليه معي
فاننا كلنا في ذاك نشترك

- الذهبي - تاريخ الاسلام - ح ٢٠ الورقة ٢١٢ . ويروى ابن تغرى بردى خمسة عشر بيتاً فقط منها - النجوم الزاهرة ح ٧ - ص ٥١ - ٥٣ . انظر كذلك :
J. De Somogyi, A Qusida on the destruction of Baghdad by the Mongols , B. S. O. S. vol vII, 1933 - 35, pp. 41 - 48 .

يانكبة ما نجا من صرفها احد
من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكنت بعد عز في احبتنا
ايدى الاعادي فما ابقوا ولا تركوا
لو ان ما نالهم يفدى فديتهم
بمهجتي وبما اصبحت امتلك
ربع الهدايا اضحى بعد بعدهم
معطلا ودم الاسلام منسفك
اين الذين على كل الورى حكموا
اين الذين اقتنوا اين الاولى ملكوا
وقفت من بعدهم في الدار اسالها
عنهم وعما حووا فيها وما ملكوا
اجابني الطلل البالي وربعهم ال
خالي : نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا
لاتحسبوا الدمع ماء في الخدود جرى
وانما هي روح الصبب تنسبك «١»

ويقول الشاعر شمس الدين الواعظ في قصيدة ثانية :ـ
عندى لاجل فراقكم الأم
فالام اعذل فيكم والام
من كان مثلي للحبيب مفارقاً
لا تعذلوه فالكلام كلام
نعم المساعد دمعي الجاري على
خدي الا انه نمام

١ – ابن الفوطي – الحوادث الجامعة – ص ٣٣٥ والشاعر كان شاهد عيان لقوط بغداد فاقواله كان معبرة اصدق تعبير عن شعور المعاصرين لهذة الاحدا ث انظر الحوادث الجامعة ص ٣٣٥ .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

ويذيب روحي نوح كل حمامة
فكانما نوح الحمام حمام
ان كنت مثلي للاحبة فاقدا
اوفي فوادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادها
يادار ما صنعت بك الايام
اعرضت عنك لانهم مذ اعرضوا
لم يبق في بشاشة تستام
يادار اين الساكنين واين ذيا
ك البهاء وذلك الاعظام
يادار اين زمان ربعك مونقا
وشعارك الاجلال والاكرام
يادار مذ افلت نجومك عمنا
والله من بعد الضياء ظلام
فلبعد هم قرب الردى ولفقدهم
فقد الهدى وتزلزل الاسلام
فمتى قبلت من الاعادي ساكنا
بعد الاحبة لا سقاك غمام
ياسادتي اما الفواد فشيق
قلق واما ادمعي فسجام
والدار مذ عدمت جمال وجوهكم
لم يبق في ذاك المقام مقام

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

لا حظ فيها للعيون وليس
للاقدام في عرضاتها اقدام
وحياتكم اني على عهد الهوى
باق ولم يخفر لدى ذمام
فدمي حلال ان اردت سواكم
والعيش بعدكم علي حرام
ياغائبين وفي الفؤاد لبعدهم
نار لها بين الضلوع ضرام
لاكتبكم تاتي ولا اخباركم
تروى ولا تدنيكم الاحلام
اقصتكم الدنيا علي وكلما
جد النوى لعبت بي الاسقام
ولقيت من صرف الزمان وجوره
ما لم تخيله لي الاوهام
ياليت شعري كيف حال احبتي
وباي ارض خيموا واقاموا
مالي انيس غير بيت قاله
صب رمته من الفراق سهام
والله ما اخترت الفراق وانما
حكمت على بذلك الايام «١»

(١) - ابن شاكر الكتبي - فوات الوفيات - ح ٣٠٣ - ٤ القاهرة ١٢٨٣ / ١٨٦٦

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

ويقول في قصيدته الثالثة :ـ

ان لم تقرح ادمعي اجفاني
من بعد بعدكم فما اجفاني
انسان عيني مذ تناءت داركم
ما راقه نظر الى انسان
ياليتني قد مت قبل فراقكم
ولساعة التوديع لا احياني
مالي وللايام شتت شملها
حالي وخلاني بلا خلاني
ما للمنازل اصبحت لا اهلها
اهلي ولا جيرانها جيراني
وحياتكم ما حلها من بعدكم
غير البلا والهدم والنيران
ولقد قصدت الدار من بعد رحيلكم
ووقفت فيها وقفة الحيران
وسالتها لكن بغير تكلم
فتكلمت لكن بغير لسان
ناديتها يا دار ما صنع الاولى
كانوا هم الاوطار في الاوطان
اين للذين عهدتهم ولعزهم
ذلا تخر معاقد التيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهم
يبكي الهدى وشعائر الايمان

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

قالت غدوا لما تبدد شملهم
وتبدلوا من عزهم بهوان
كدم الفصاد يراق ارذل موضع
ابدا ويخرج من اعز مكان
افنتهم غير الحوادث مثل ما
افنت قديماً صاحب الايوان
لما رأيت الدار بعد فراقهم
اضحت معطلة من السكان
مازلت ابكيهم والثم وحشة
لجمالهم مستهدم الاكان
حتى رثى لي كل من ما وجده
وجدى ورا شجانه اشجاني
اترى تعود الدار تجمعنا كما
كنا بكل مسرة وتهاني
اذ نحن نغتنم الزمان ونجتني
بيد الامان قطوف كل اماني
والدهر تخدمنا جميع صروفه
والوقت يعدينا على العدوان
والعيش عض والدنو ممزق
بيد الوصال ملابس الهجران
هيهات قد عز اللقاء وسددت
طرق المزار طوارق الحدثان
مالي اردد ناظري ولا ارى الا
حباب بين جماعة الاخوان

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

وا لهفتي وا وحدتي وا حيرتي
وا وحشتي وا احر قلبي العاني
سرتم فلا سرت النسيم ولا زها
زهر ولا ماست غصون البان
مالي أنيس بعدكم غير البكا
والنوح والحسرات والاحزان
ماليت شعري اين سارت عيسكم
ام اين موطنكم من البلدان «١»

الدكتور عبد المنعم رشاد
عميد كلية الاداب

١ ـ ابن شاكر الكتبي – فوات الوفيات – ج ١ . ص ٣٠٤ – د .

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in